رحلة إلى اليمن

بول إيميل بوتا

ترجمة: عبدالغني الحاجي

قسم اللغة الفرنسية، كلية الآداب
والعلوم الإنسانية، جامعة صنعاء

ملخص

هذا نص ينشر لأول مرة باللغة العربية وهو مقتطف من رحلة عالم النبات الفرنسي (بول إيميل بوتا) إلى اليمن. نشر باللغة الفرنسية عام 1841م. ننشر هنا فصلين فقط من الرحلة. في الفصل الأول يستعرض الرحالة مساره من جده إلى الحديدة، ويصف مدينة الحديدة وسكانها ثم يصف بيت الفقيه وزبيد.

أما الفصل الثاني فيتحدث فيه عن الضيافة اليمنية لدى بعض أعيان تهامة ثم يصف مدينة حيس وضواحيها وصناعاتها آنذاك.

الكلمات المفتاحية: اليمن، رحلة، بول إيميل بوتا، علم النبات، الحديدة، زبيد، حيس

التعريف بالمؤلف: بول إيميل بوتا

بول إيميل بوتا Paul-Emile Botta هو عالم نبات ورحالة فرنسي. ولد في مدينة توران في إيطاليا في 6 ديسمبر 1802 من عائلة إيطالية الأصل. بدأ دراسته في الطب في باريس قبل أن يغادر في عام 1826 على متن باخرة تجارية تدعى البطل Le Héros للقيام برحلة استكشافية حول العالم بصفة جراح. طاف بوتا بسواحل الأمريكيتين من البرازيل حتى كاليفورنيا، وزار جزر كثيرة حتى وصل إلى الصين ثم عاد إلى باريس في شهر يوليو من عام 1829 وناقش رسالة الدكتوراه في 5 يناير 1830.

بعد رحلته التي دامت ما يقارب أربع سنوات عاد بوتا حاملاً معه معلومات قيمة في التاريخ الطبيعي التي أودعها في متحف باريس والتي جذبت إليه أنظار إدارة ذلك الصرح العلمي الذي كان له دور كبير في الرحلات الاستكشافية. عين قنصلاً في الإسكندرية، فاهتم بتعلم اللغة العربية ولهجات المناطق التي زارها. ثم كلفه المتحف الفرنسي برحلة استكشافية في ضفاف البحر الأحمر ابتداءً من سيناء حتى جبال العربية السعيدة. واستطاع أن يصل إلى مناطق لم يصل إليها الرحالة الأوروبيون من قبله وساعدته على ذلك معرفته باللغة العربية وبعادات وأخلاق سكان تلك المناطق التي زارها. فكتابه الذي يحمل عنوان " رحلة في اليمن" ما زالت أحد أهم ما كتبه الرحالة من خلالها يمكن التعرف على جنوب الجزيرة العربية من جدة مروراً بتهامة حتى مدينة تعز وجبل صبر. وقد ورد وصف هذه الرحلة في " الحوليات الجديدة للرحلات" والتي كان يرأسها مالت برون حيث قالت بأن هذه الرواية "مفيدة ولكنها غير معروفة"[1].

أما مجلة النقد التاريخي والأدبي فقد اعتبرت أن هذه الرواية ما تزال " مفيدة بعد أربعون سنة وما زالت تحافظ على قيمتها لأن عادات العرب وبالأخص في اليمن ما زالت ثابتة ولم تتغير"[2].

---

(1)- الحوليات الجديدة للرحلات، باريس، شالاميل أينيه، 1870، ص 173. Nouvelles annales des voyages, de la Géographie et de l'Histoire, dirigé par M. V. A. Malte-Brun, Paris, Challamel Ainé, vol. 206, 6e série, avril, 1870, t. 2, p. 173.

(2)- مجلة النقد التاريخي والأدبي، السنة 14، باريس، ايرنيست لورو، الفصل الثاني، س 1880، ص 335.
« Botta, son voyage dans l'Yémen », in Revue critique d'histoire et de littérature, Paris, 1880, année 14, 2e semestre, p. 335.

قام بوتا برحلته إلى اليمن بين عامي 1836- 1839 وزار خلالها مدناً وقرى كثيرة في اليمن ومنها الحديدة التي وصلها في سبتمبر 1836م قادماً من جدة، ثم واصل مسيرته إلى كل من حيس وجبل رأس وزبيد والمخاء وتعز حتى وصل إلى قمة جبل صبر. وزار أيضاً الجند حيث التقى هناك بالشيخ حسان الذي أصطحبه لزيارة إمام اليمن والذي كان مقره في تعز والذي أعطاه مرافقين للسفر لاكتشاف جبل صبر. ويبدوا أن إمام اليمن كان في ذلك الوقت الإمام الناصر عبدالله بن الحسن. لقد كان لرحلة بوتا إلى اليمن وقع كبير لدى الرحالة الفرنسي حيث أكتشف فيها ما لم يكن في الحسبان. ففي كل من جبل رأس وجبل صبر أكتشف بوتا الواقع والخيال وشاهد القديم والحديث ورأى الحياة البدائية والحضرية وعاش الخوف والأمان وجمع ما استطاع جمعه من الأعشاب التي تستخدم في الصناعات العلاجية. وقد أبدى سعادة لا توصف حين وصل إلى قمة جبل صبر والتي لم يصل لها الرحالة السويدي فورسكال[3] وأكتشف حصن العروس الذي وقف على أطلاله ليتبدى له منظر بانورامي حرك مشاعره وذلك حينما وقف على أطلال حصن العروس في جبل صبر ليطلق لنظره العنان حيث يرمي شباكه في البحر الأحمر والبحر العربي ثم يحلق به على قمم جبل حبشي في الغرب ليتبدى له في الأفق البعيد القمم الشرقية لجبال القارة الإفريقية. وهنا توقف زمن الرحلة وبدأت نسمات تلك المناطق الجميلة تدغدغ مشاعره ليبدأ الترتيب للعودة إلى المخاء والحديدة ليواصل رحلته بعد ذلك إلى أفريقيا. وينقسم كتابه "رحلة في اليمن" إلى 12 فصلاً وقد قمنا بترجمة الفصلين الأول والثاني من الطبعة الأولى عام 1841م.

(3)- فورسكال (Forskal) هور رحالة سويدي الجنسية شارك في الرحلة الدنماركية التي بقيادة نيبور.

رحلة إلى اليمن[4]

الفصل الأول:

مغادرة جدة- رحلة بحرية- الوصول إلى الحديدة- الشيخ أبو بكر قحطان- وصف الحديدة- السكان- البانيان- الصوماليون- التجارة- مغادرة الحديدة- بيت الفقيه- زبيد- الوصول إلى حيس.

بعد إقامة دامت بعض الأشهر في المناطق الشمالية للبحر الأحمر غادرت من جدة على متن مركب عربي كبير محمل بالعدس مؤنة الجيوش المتواجدة في اليمن. وبعد رحلة بحرية شبيهة بتلك الرحلات البحرية التي يقوم بها البحارة العرب، أي رفع الشراع في الصباح ورمي المرساة في المساء لقضاء الليل قرب الرصيف، وصلت إلى الحديدة في نهاية سبتمبر 1836.

عندما نزلت إلى الأرض كانت الشمس قد غربت فذهبت أولاً لزيارة الحاكم حسين أفندي الذي ولد وتربى في بلغراد. وبما أنه كان على صلة مستمرة مع الأوروبيين فقد استقبلني جيداً وبتلك الحرارة والتهذيب التي يتميز بهما الأتراك. ولكن كان يخبئ بداخله الخبث والقلب الزائف حاله حال معظم أبناء جلدته. ذهبت إلى أحد تجار البلاد والذي أحمل له رسالة توصية وهو الشيخ أبو بكر قحطان، وهذا الاسم مشهور جداً في اليمن ويعود إلى العصور القديمة لأن العرب يطلقونه على الشيخ الذي نسميه نحن قحطان[5]. ويتحلى هذا الرجل الغني وذوا الاعتبار بحسن النية والاستقامة التي لمست عنها أدلة كثيرة. وقد ولد هذا الرجل في حضرموت، وحاله كحال الكثير من أبناء بلده فقد أتى يبحث عن الثروة التي وجدها في اليمن. وأهم تجار اليمن والحجاز ينتمون إلى طبقات بسيطة من قبائل منبوذة في حضرموت. وهؤلاء التجار يهاجرون لبعض الوقت ولا يعودون إلى مسقط رأسهم إلا عندما يكون المال الذي قد جمعوه يضمن لهم هناك وفي كل مكان وضع مشرف وينسيهم الشعور بدناءة أصولهم. وكان

---

(4)- بول أيميل بوتا، رواية رحلة في اليمن، باريس، بنجاما دوبرات، 1841م.
Paul-Emile Botta, Relation d'un voyage dans l'Yemen, Paris, Benjamin Duprat, 1841.

(5)- يقصد به أصل العرب.

الشيخ قحطان يمتلك العديد من القوارب الكبيرة التي يستخدمها في التجارة بين الخليج الفارسي (العربي) والهند، وكانت الثروة التي يمتلكها كافية للعودة إلى موطنه. كان رجل بسيط ذو بشرة ناصعة البياض بالنسبة لرجل عربي، وجميل المظهر ويرتدي ما أمكنه من الملابس البسيطة كما هي حالة عامة سكان هذا الساحل، أي أنه لم يكن لديه من الملابس سوى مئزر حول خصره ويضع على رأسه قلنسوة من القطن محاطة بالحرير وبقية الجسم عارٍ تماماً. بعد أن قدم لي حساء من الشربة المتواضعة وفنجان من القهوة حسب التقاليد اليمنية في فناجين معطرة بالبخور الذي يعطي للقهوة مذاق سيئ حسب رأيي. لقد قضيت ليلتي عنده وفي اليوم التالي استأجر لي منزلاً صغيراً لأسكن فيه. كنت مضطراً أن أقضي بعض الأيام في الحديدة لانتظار عودة إبراهيم باشا حفيد ابن أخ باشا مصر وحاكم جزء من اليمن المحتل من قبل المصريين. في ذلك الوقت لم يكن المصريون قد سجلوا بعد أي تقدم في الداخل وكانت سيطرتهم مقتصرة على مدن الساحل، لكنهم عرفوا استغلال جو الخلاف الذي يسود بين العرب، وراحوا يعملون بصمت للتحضير للنجاح بمحاولات عدة قاموا بها بعد رحيلي للسيطرة على الجبال. والإمام الشاب الذي كان يحكم صنعاء كان محط سخرية في اليمن بسبب ضعف حكومته وعيوبه الشخصية، ولهذا كان أحد أعمامه قد نصب نفسه في تعز وأخذ لقب إمام وكان قد جمع جيش لخلع ابن أخيه. كما أستقل أيضاً الزعماء الأقوياء، فعمت الفوضى والبؤس الناتجين من طموحات المتنافسين والذي عزز رغبة السكان في تغيير الحكومة ووضع السلطة في أيادٍ أكثر قوة وأكثر قدرة على إعادة النظام وإعادة السلام الذي حُرموا منه منذ زمن طويل.

قوة محمد علي هي الوحيدة التي استطاعت بتفوقها أن تقدم لهم مستقبل يمتاز بالهدوء والاستقرار، وبشكل عام كانت إمكانيات العرب غير كافية لمعاداته، وكان إبراهيم باشا حينها قد نجح في ضم أحد أقوى زعماء اليمن إلى حلفه وهو الشيخ حسن بن يحي بن علي سعد والذي، بعد أن كان حاكماً لفترة طويلة لإقليم تعز التابع لأئمة صنعاء، ظل مستقلاً بحكمه في المناطق الجبلية والتي تدعى وصاب السافل، وكان قد لعب دوراً مهماً أثناء فترة تمرد تركي

بيلميز ضد باشا مصر واجتياح عرب عسير. وقد أعطوه هؤلاء حكم المخاء حيث ظل فيها حتى استولت عليها جيوش الباشا. وعند الاستيلاء على المدينة، أراد الباشا مجاملة الشيخ حسن وأن يكافئه كونه لم يقم بأي مقاومة فنصبه والياً مستقلاً على إقليم حيس وكل المناطق المجاورة لهذه المدينة.

بما أن سفري داخل البلاد كان مستحيلاً بدون موافقة وحماية الشيخ حسن فقد أردت أن احصل على دعم إبراهيم باشا لديه كون أن له تأثيراً عليه. وخلال انتظاري له قمت بجمع كل المعلومات الممكنة.

إلى جانب عدد كبير من الأكواخ المبنية من فروع الشجر ومسقوفة بالقش وتدعى عشه، تحتوي مدينة الحديدة على منازل جميلة مشيدة من الياجور ومبيضة بالجبس، وشرفات أسقفها محاطة بحاجز مزين بأشكال عديدة تعطي للمنازل بعض من المظهر الإيطالي. النوافذ مغلقة بأقفاص تطل على الشارع كما هو الحال في المشرق كله، ومكونة من شبك من الخشب المقطع بأساليب مختلفة وبطرق فنية حقيقية توحي بذوق وصبر الفنان. كما أن الأبواب تشبه تلك التي في جدة، فهي أيضاً منحوتة بإتقان عالٍ كتلك الصناديق القديمة جداً والمرغوبة حالياً في بلادنا.

شوارع الحديدة تبدو أكثر اتساعاً وأكثر نظافة من تلك التي في مدن مصر، لكن الأسواق الموسمية صغيرة ومتسخة. وكنت أتجنب بالأخص المرور بتلك الأسواق حتى لا أتأثر عند رؤيتي للعديد من المتسولين المصابين بجروح مرض الغنغرينا المنتشر على الساحل ومستعص لدى الناس الذين لا يملكون وسائل العيش الكريم. وهؤلاء البؤساء غالباً ما يشهقون ثم يموتون في الشوارع أمام أعين المارة ولا أحد يفكر في تخفيف آلامهم. كانت المدينة مملوءة بهم وقبل ثلاثة أشهر ظهرت الكوليرا لبضعة أيام وحصدت منهم عدداً لا بأس به. وكان هناك طبيب فرنسي في خدمة إبراهيم باشا قد اقترح عليه تأسيس مستشفى لاستقبالهم ومعالجتهم مجاناً. ولكن الباشا رفض ذلك لأنه كان سيستوجب أيضاً تغذيتهم. سكان الحديدة كانوا مزيجاً من أجناس متعددة، وكما قلت سابقاً فإن كبار التجار من أصول حضرمية. ونجد أيضاً بعض اليهود والأرمينيين

والبانيان[6]، وهؤلاء لهم الحرية في ممارسة طقوسهم الدينية ولكن لا يسمح لهم باصطحاب نسائهم في المدينة، ولا يجب أن يبقوا فيها إلا الوقت اللازم لربح المال. فهم يعتنون بتغذية كل حمام المدينة وذلك بتوزيع منتظم للحبوب ينشرونها فوق أسطح منازلهم. أعمال الخير التي يقومون بها تشمل أيضاً الكلاب التي هي من نفس فصائل الكلاب في بقية المشرق. ولكن هذه الحيوانات ليست مقبولة في المدينة وإذا دخلت إلى المدينة فإنها تُطرد منها وتظل خارج الأسوار حيث تعطى لها كل صباح لحوم يقوم بشرائها البنيان. لكن نلاحظ أن أكثر سكان الحديدة وكل المناطق الساحلية حتى جدة هم من أصول صومالية، ذوي البشرة السوداء والشعر الطويل، وملامح أوروبية.

أما سكان الساحل المقابل لا يأتون إلى الحديدة إلا لبيع الزبدة (أو السمن) والخرفان ومنتجات أخرى من بلدهم. إنها أصول مميزة من حيث الشكل، وهم فخورون بأنفسهم ويتميزون بالشجاعة، أما لغتهم فأعتقد بأنها لغة البيشاريس، وهي قبيلة تقطن بين النيل والبحر الأحمر وملامح سكانها تتشابه كثير مع ملامح الصوماليين. وهم يرتدون قطعة قماش فضفاضة من القطن كثوب القضاء وينتعلون نعال جيد الصنع ومسلحين بسكين أو خنجر مربوط في الساعد. ويتميز الصوماليون بالذات بالشعر الغزير الأشعث يقصونه ويصفونه بطريقة غريبة. بعض قصات الشعر هذه هي نفس تلك القصات في إقليم السنار[7]، وهي تشبه تماماً قصات وتصفيف الشعر التي نجدها مرسومة في الحفريات المصرية. وما زال ميناء الحديدة على ذلك حتى قبل أن يقوم الباشا مصر باحتكار البن، فيحجز النصف ويترك النصف الآخر للتجار وذلك ليبيعه في سوق مصر حيث أراد أن يكون هو الوحيد من له الحق في بيعه. فالسفن القادمة من الهند أو من الخليج الفارسي (العربي) إلى الحديدة لبيع بضائعها نقداً تشتري من هناك عند عودتها جزءاً من حمولتها المكونة أساساً من البن والصمغ

(6)- البانيان هم من أصول هندية يأتون إلى اليمن من أجل التجارة أو العمل في المدن الساحلية وقد تحدث عمن وصفهم كل من جون دولاروك ودغرانبريه والقديس دولا بورت في رواياتهم عن بلاد العربية السعيدة حيث يصفوهم بأنهم يلبسون العمائم الكبيرة ويبدوا أنهم يدينون بالديانة الهندوسية لأنهم يقدسون الحيوانات حسب ما ذكره هؤلاء الرحالة.

(7)- سنار هي مدينة تقع في وسط السودان جنوب شرق الخرطوم، قامت بها في السابق مملكة سنار.

والبخور والعاج الخ، وهي منتجات من الساحل المقابل. وتجلب إلى هناك أيضاً اللآلاء المصطادة من الجزر والعديد من السواحل المقابلة اللحية. والبانيان هم أرباب هذه التجارة بلا منازع ويرسلونها إلى الهند حيث قيمتها تفوق بشكل عام قيمة اللؤلؤ المستخرج من الخليج الفارسي (العربي)، بسبب لونها الوردي الجميل. وقد سنحت لي الفرصة أن أرى عند الشيخ أبو بكر قحطان عِقد أو مسبحة مرسلة للباشا قُدِّر سعرها بأكثر من خمسين ألف فرنك.

لم يتأخر إبراهيم باشا بالعودة من المخاء التي كان قد سافر إليها، فحصلت منه على رسالة توصية إلى الشيخ حسان وقد سلمني إياها بكل سرور لدرجة أنه تمنى أن أزوده بالمعلومات الإيجابية عن حالة البلاد. وأخذت معي أيضاً رسالة تركي يدعى يوسف آغا. بما أن هذا الرجل مستقر منذ فترة طويلة في اليمن فإنه قد تمكن من الاحتفاظ لنفسه بتأثير كبير على كل الحكام المتعاقبين. فقد كان معاوناً أو مستشاراً لإبراهيم باشا، ولم يمنعه هذا من الاحتفاظ بعلاقات حميمة ليس فقط مع أنصار الأتراك بل أيضاً مع إمام صنعاء. ومع ذلك كوني أردت أن أتجنب بقدر الإمكان، في بلد مشكوك في سياساته، أن يظن بأنه بيني وبين الحكومة التركية علاقات إيجابية، فعدت إلى ارتداء ملابسي الأوروبية التي كنت قد تركتها منذ فترة طويلة. ولم يحصل أني ندمت على ذلك لأنه وإن كان غالباً ما يعرضني إلى حب الإطلاع الملح، إلا أنه منحني على الأقل كثيراً من الاحترام وبعد عني الشبهات.

وبعد أن انتهيت في الحديدة من جميع إجراءات السفر المختلفة رحلت منها في الأول من شهر أكتوبر مساءً برفقة ثلاثة من الخدم المصريين يتقدمهم الدليل. هذه الحيطة كانت ضرورية في تهامة (ويطلق هذا الاسم على السهل المحاذي للساحل). وعند المرور بالمناطق المزروعة فإن الطريق تمر فوق الكثبان المتعرجة التي يقيمها الناس من الطين حول المزارع لاحتواء مياه الأمطار أو السيول التي تتدفق من الجبل. ومن السهل أن يضيع المرء في تلك الطرقات وهذا ما حدث لنا أكثر من مرة على الرغم من وجود الدليل معنا. وكنت قبل ذلك قد بعثت بأشيائي على الجمال، أما أنا فقد اشتريت واحدة من تلك الحمير المولودة في الجبال لأنها صالحة للسفر بسهولة في تلك المناطق أكثر من أي نوع من

الحيوانات. فهي كبيرة وقوية جداً وأكثر انقياداً من البغال التي تساويها تقريباً في الطول لكنها –أي البغال- لا توازيها في شيء من حيث وثوق خطوتها. فهي ذات شهرة كبيرة لدرجة أن سعرها يساوي بل يزيد أحياناً على سعر الحصان.

عندما خرجنا من الحديدة مررنا بسهول رملية، جدباء أو مغطاة بأعشاب ملحية[8] والتي يستخدمها الناس لصناعة السود la soude[9]، وموجودة بكثيرة على هذا الساحل لدرجة أن السود الذي يستخرج منه يمكن أن يصدر بكمية معتبرة إذا ما أحيط بكثير من العناية والذكاء أثناء التحضير. وعند منتصف الليل توقفنا في إحدى القرى وغادرناها قبل طلوع الشمس. وبما أن اتجاه طريقنا إلى بيت الفقيه يبعدنا قليلاً عن البحر فإن الأرض كانت أفضل. مررنا ببلاد مزروعة ومغطاة بحقول القمح والذرة وقصب السكر والنيلة. وهذه النبتة الأخيرة منتشرة وتنمو جيداً في اليمن، ولكن النيلة التي تستخرج منها ليس لها أي قيمة تجارية لأنها معدة بطريقة سيئة. ومع ذلك بما أنها غزيرة أعتقد أنه بالنسبة لأي أوروبي مثقف في فن تحضيرها فإن إنشاء معمل قد يكون عمل تجريبي مفيد.

توقفت في منتصف النهار في قرية صغيرة ذكرتني أكواخها النادرة الموزعة في وسط غابة أشجار الليمون بقرى سيناء المبنية من فروع الشجر ومغطاة بالقش ولكنها تختلف عن أكواخ أفريقيا بأنها رباعية الشكل بينما أكواخ زنوج سينار مستديرة ومدببة وتشبه طواحين العلف. الاخضرار الطبيعي في الضواحي تشبه كثيراً الطبيعة في وسط أفريقيا وعدد كبير من النباتات بدت لي هي نفسها تماماً.

وبعد لحظات من الراحة واصلت السير ووصلت إلى بيت الفقيه قبل غروب الشمس، وكانت قديما مدينة مزدهرة ولكنها أصبحت تقريباً مهجورة منذ أن أصبح ميناءها ميناء غلافقة[10] مطموراً بالرمال ونتيجة لذلك فإن تجارة البن

(8)- أي الأعشاب التي تنمو في السهول القريبة من البحر (المترجم).

(9)- قد يعني الكاتب بهذه الكلمة (La soude) السود بلهجة أهل تهامة وهو الفحم، أو القطران المستخرج من الأعشاب، فالمعنى ليس واضحاً (المترجم).

(10)- غلافقة هو الميناء القديم لمدينة بيت الفقيه على ساحل البحر الأحمر ويقع في الغرب من المدينة ويسمى أيضاً باب غلافقة وكذلك باب النخل – (المترجم).

تحولت إلى الحديدة والمخاء. وخوفاً من أن يزعجني فضول الناس، فإنني لم أدخل المدينة وقضيت الليل في إحدى المقاهي التي نجدها على كل الطرقات في اليمن. وهو عبارة عن منزل صغير أو بالأحرى عشة من الأعشاب ويمكننا أن نجد فيه الماء والنار والسرير، وهو مرقد مرفوع بأربع دعائم، ويمكننا أن نجد هناك أيضاً القهوة أو القشر. والقشر هو القشرة التي تحيط بحبة البن، وفي حالة ما تكون طرية فإنها تشبه قشرة الكرز الإنجليزي. فيجففونها ويغلونها ثم يشربونها حارة في أي وقت في النهار، وهذا المشروب خفيف ومسكر وله رائحة خفيفة للقهوة وله نفس الخصائص المنشطة. وربما يكون السبب اقتصاديا في استخدام اليمنيين لهذا المشروب وتفضيله على القهوة التي تعد كما هو معروف في أي مكان آخر واحتفاظهم بنواة البن لبيعها. لكني لا أؤيد هذه الفرضية لأن هذا الاستخدام للقشر عام لدى كل الطبقات: الأغنياء والفقراء يشربون القشر وفي كل أوقات النهار، ولا يشربون البن إلا بعد الوجبات. ويقال بأن القهوة تهيج المعدة في مناخهم إذا استخدموها باستمرار.

قبل طلوع فجر الغد غادرت بيت الفقيه ووصلت في المساء إلى زبيد عاصمة تهامة سابقاً وهي مدينة كبيرة محاطة بسور مهدم وتحتوي على منازل جميلة مبنية من الياجور. وقد أمضيت اليوم الثاني في البحث عن جمال أخرى لنقل حاجاتي إلى حيس، ولم استطع المغادرة إلا في المساء وبرفقتي دليلان وجنديان من الشيخ حسان الذي قصدت الوصول إلى أرضه. وعند الخروج من المدينة مررنا بوادي زبيد وهو أكبر الوديان التي تمر فيها السيول المتدفقة من الجبال ويعمل السكان على تسييرها لتروي بلادا واسعة. وبعد ذلك بقليل، وفي بداية الليل، فقد الدليلان الطريق، وبعد أن مشينا لبعض الوقت وجدنا أنفسنا ضائعين في وسط أحد السهول الذي عبرناه في كل الاتجاهات للبحث عن الطريق ولكن دون فائدة. وعندما لم نستطع الوصول إلى إي طريق قررت أن نمضي الليل هناك حيث كنا متواجدين. وبعد أن أنزلت حاجاتي من ظهور الجمال سمعنا نباح كلاب عن بعد. وهذه الأصوات يستحبها إي مسافر في الصحراء. فأطلقت بعض العيارات النارية لأنادي العرب المخيمين وقد أتوا بالفعل. وبمقابل أجرة بسيطة وافقوا بكل ترحاب على مرافقتنا إلى أي مقهى لنبيت فيه. وبعد شروق شمس الغد بقليل وصلنا إلى حيس.

الفصل الثاني:

ضيافة الشيخ حسان – زيارة للشيخ حسان – اللباس – الملامح- الأساليب- المشاريع- وصف حيس – الضواحي – المنازل – الصناعات – الزيارة الثانية للشيخ عيسى الحضرمي.

بعد لحظات من وصولي إلى حيس اصطحبوني إلى منزل كان قد أمر الشيخ بتجهيزه لي بعد أن أُخبر بوصولي. وما أن وصلت إلى ذلك المنزل حتى أرسل لي الشيخ بمساعده لتهنئتي بوصولي السعيد وليقول لي بأنه – إي الشيخ- يعتبرني ضيفه وبأنه سيزودني بكل ما أحتاجه مجاناً، وأول دلائل حسن ضيافته أن بعث لي بعدد من الخرفان والدقيق والسمن واللبن والشمع وكل ما كان ضروري لي. ولقد سمعت في المدينة بأن الشيخ منع السكان أن يأخذوا أي شيء مني تحت أي مبرر، وأن الدولة، وهذا الاسم يطلق على الحكام في اليمن، متكفلة بأن تدفع للمواطنين ما قد آخذه منهم أو أجرة الخدمات التي قد يؤدوها لي.

هذا الكرم ليس صفة شخصية يتميز بها الفرد، بل أن كرم الضيافة للأجانب عند العرب يعتبر من حق الحاكم. ويذكر أن أحد الملوك الوثنيين ويدعى كليب بن وائل كان لا يسمح لأحد بأن يشعل النار بالقرب من ناره، أي ينافسه بالضيافة. وفي أيامنا، أحد الملوك الوهابيين وهو المشهور سعود(11)، كاد أن يحرم من الإرث ابنه البكر عبد الله(12) لأنه أعطى وجبة عشاء لأجانب وهو ما يتعارض مع امتيازه. وكذلك الحال في اليمن، فإن الأئمة يرون دائماً أن سمة الضيافة هي من حق الملك. وقديماً، كما يمكن أن نرى في رواية نيبور، كانوا يقومون بتأمين احتياجات المسافرين، وعند مغادرتهم كانوا يعطونهم مبلغا من المال يساعدهم على مواصلة رحلتهم. وبما أن الشيخ حسان كان يعتبر نفسه مستقلاً فقد كان يعاملني بكرم عالٍ ولم يفعل هذا إلا اتباعاً للعرف المكتسب وليستأثر لنفسه بإحدى ميزات القوة الملكية.

---

(11)- هو الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد، أحد حكام الدولة السعودية الأولى. يسمى بسعود الكبير، حكم منذ وفاة والده في عام 1803م وحتى وفاته عام 1814م-(المترجم).

(12)- هو الإمام عبدالله بن سعود بن عبدالزيز، حكم أربع سنوات منذ وفاة والده، وتوالت خلال حكمه حملات والي مصر، محمد على باشا -(المترجم).

وبعد الظهيرة ابلغوني بأن الشيخ حسان ينتظرني فذهبت إلى بيت الدولة أو قصر الحاكم، وهو مجمع من المباني والأبراج القوية المبنية من الياجور التي يمكنها أن تقاوم طويلاً أمام الجيوش التي لا تمتلك سلاح المدفعية كما هو الحال عند العرب. الدخول إلى هذا المجمع من باب واحد يليه ممر مسقوف بعقود وعلى جانبيه جنود الشيخ جالسين أو مضطجعين على دكات أو أسِرَّة ومعلقين أسلحتهم الطويلة ذات الفتيل على الحائط، وبعد هذا الممر يوجد ساحة محاطة بإسطبل للخيول وحظيرة يبدو أنها لا تتبع البيت الأميري بل للفلاحين. وبعد بضع دقائق من الانتظار أدخلوني إلى الشيخ فوجدته واقفاً وربما لكي لا يقلل من قدره إذا ما نهض عند قدومي. وقد استقبلني في صالة كبيرة محاطة بخزائن وصناديق هندية كبيرة مملوءة بأواني منزلية أو بأغراض شخصية. وفي نهاية الصالة يوجد أريكة أجلسني عليها بالقرب منه.

ملابسه كانت بسيطة وتشبه ملابس التجار الميسورين في جدة أو في اليمن. وكان يرتدي رداء أو عباءة من الحرير وصندل أحمر، أما الحزام فهو عبارة عن شال كشميري يمر عبره واحد من تلك الخناجر الطويلة المعقوفة ذات الغمد المرصع بالذهب والذي يسميه العرب جنبية. عمامته عبارة عن قلنسوة من الحرير مطرزة بألوان مختلفة، كتلك التي يرتديها الناس في وسط بلاد العرب حيث يلف حولها قطعة قماش موصلية من الهند. ولكن الشيء الفريد في ملبسه هو شال صغير من الصوف والذي كان يلفه أسفل الوجه ليغطي به عيب خلقي يعتبر مخجل عند العرب، وهو أن الشيخ لم يكن لديه أي علامات للذقن ولا للشارب، فهي صفة غريبة قد توحي، بالإضافة إلى صوته الناعم ورقة يديه الأنثوية تقريباً، بعض الشكوك حول رجولته لولا أن لديه عددا من الأطفال الذين يبدون كصور حية من أبيهم والذين يعتبرون شهادة لصالحه. وهذا الشال لا يرى منه إلا الجزء العلوي من وجه الشيخ الذي يمتلك كل الصفات لدى اليمنيين بشكل عام: أنف أقنى، وعينان كبيرتان وجميلتان ومفتوحتان جداً، وتصبحان مُعبِّرتين أكثر عند استخدام قطرة العين، وككل أبناء بلده فهو يكحل رموش عينيه باللون الأسود. فنعومة أسلوبه وسحنته يشكلان تناقضاً فريداً مع شجاعته التي أشتهر بها في أرجاء العربية، وتناقضاً مع قوة طباعه التي لا تتراجع قط أمام

الوسائل اللازمة للوصول إلى أهدافه. وعندما نراه قد لا نصدق حقيقة قصته التي أكدها لي حتى ابنه. من المؤكد أن شكله لا يوحي بذلك الرجل الذي، لكي يتخلص من منافسيه الأقوياء، قد قام بقتل أخويه وعمه ووالد زوجته الأولى بيده، وهي إجراءات عنيفة إلى حد ما لكنها معذورة ومُبَرَّرَة جداً عند العرب بسبب دافعها والذي لم يكن سوى الطموح.

بعد الترحاب حسب ما جرت العادة، سلمته رسالة إبراهيم باشا. وبعد أن عرف محتواها أكد لي بأني سأكون تحت حمايته وأنه بعد أيام قلائل سيسافر إلى الجبال وباستطاعتي مرافقته بكل أمان وسيتركني للأبحاث التي أتيت من أجلها والتي يبدوا أنه قد فهم فائدتها وإن لم تكن الفائدة العلمية فعلى الأقل الفائدة العلاجية. وبما أنني قد حدثته في هذا الموضوع عن الرحلة القديمة والمفيدة التي قام بها نيبور ومرافقيه، وبما أنني عبرت له عن أسفي لحالة التدهور التي رايتها في الدولة التي تعاقبت فيها حكومات سيئة قللت من شأن بلاده التي كانت سابقاً غنية ومزدهرة، وبهذا فقد آلت المحادثة بشكل طبيعي إلى الحالة الحالية للقضايا. فقد تحدث لي الشيخ عن مشاريعه ورغبته في المساهمة في إعادة النظام ومساعدة باشا مصر في الإمساك بزمام السلطة. وأنا متأكد تماماً بأن من داخله كان يرغب بذلك لنفسه ولم ير في الأتراك سوى وسيلة لمد نفوذه الشخصي لأن الحقد على الأجانب هو شعور طبيعي لدى العرب ومتأصل في قلوبهم لدرجة أنه من غير المحتمل أن يترك لديهم مجال للعقل وليس قط لحب الخير للشعب. وحينما دخل وقت صلاة العصر أو صلاة بعد الظهر أُحضر للشيخ سلة واسعة مملوءة بالخبز فقام حسب العادة بتوزيعه بنفسه من النافذة للعديد من المتسولين الذين ينتظرون هذا السخاء في الخارج. فخرجت من هناك مسروراً جداً من لطف الشيخ حسان ووعده الذي قطعه لي بمرافقته في سفره داخل البلد.

لقد مكثت عدة أيام في حيس منشغلاً بجمع الأعشاب من الضواحي. وتقع هذه المدينة وسط سهل يمر جزء منه بين سلسلة من الجبال بين جبل رأس في الشمال الشرقي وجبل [13] براشة في الجنوب الغربي، وأرضها عبارة عن تربة

(13)- مركز إداري من مديرية مفبنة المترجم).

متحركـة أو طمـي. وفي موسـم الأمطـار يـروى هـذا السـهل مـن جـدول أو سـيل يتلاشـى في موسـم الجفـاف في بدايـة السـهل كمـا هـي حالـة الأنهـار في اليمن. وضفاف الجدول مزروعة كبقيـة سـهل تهامـة، أي أن السـكان يصنعون حـواجز ترابية حول مزارعهم لتسيير المياه عبرها وحفظها. فهم يبذرون مزارعهم بالزهور، والقمح، والسمسم لاستخراج الزيت، والذرة، وقصب السكر، ...الخ. أما الأجزاء غير المزروعة فهي جدباء ويوجد فيها بعض الشجيرات النادرة وأهمها الأراك وهي شجرة يصنع منها بلسم مكة، ويقطع الناس منها الفروع الصغيرة ليستخدمونها كفرشة أسنان بسبب رائحتها الطيبة.

مدينة حيس مفتوحة ولا يوجد فيها أي قلاع سوى قصر الحاكم، والمنازل مبنية من الياجور وتشبه ذلك المنزل الذي سكنته حيث لا تتكون سوى من طابق واحد موزع إلى عدد من الحجرات، وتشكل إحدى جوانب ساحة يزرع فيها عادة بعض الشجيرات. ومع ذلك فإن غالبية الناس تسكن في أكواخ من القش محاطة بسياج مـن الأعشاب المشوكة. ولا يوجـد في حيس أي تجـارة أخـرى غير تجـارة الفخار والتي اشتهرت بصناعته هذه المدينة في جميع أرجاء اليمن. والمادة الأولية هـي صـخرة صلصالية تحـول إلى بـودرة ثـم تـشكل منهـا بواسـطة الحـرارة أوان فخارية صلبة، ومخصصة لاستخدامات متعددة كفناجين لشرب القشر وأطباق وقنينـات بأحجـام عـدة. إنـه المكـان الوحيـد الـذي يجيـد فيـه النـاس اسـتخدام الأصباغ للنقش على الفخار. وتمتاز حيس أيضاً بصناعة الخزف المزخرف بالألوان الخضراء والصفراء أو الزرقاء والتي تستخدم كزخرفة لتزيين المنازل.

وكعادته، فإن الشيخ حسان يظل ملازماً خدره لوقت طويل ونادراً ما يـراه الناس. ومنذ أول مقابلة لـي معـه لم أحظ بعد بالموافقة أن أعـود إليـه، ومـع ذلـك عندما شعرت بالتعب من التجول في ضواحي حيس والـتي لم أجد فيهـا إلاّ القليل من الثروة النباتية رغبت أن أذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه وأن أحصل منه على الموافقة وكذلك الوسائل اللازمة للذهاب إلى الأماكن المفيدة بالنسبة لـي. فقررت أن اكتب له رسالة اشرح له فيها رغبتي وأن أطلب منه مقابلة أخرى وافق عليها بالحال. وقد كـان مندهشاً جداً بأن رأى رسالة مكتوبة باللغـة العربـي مـن أوروبي، وزاد اندهاشه سهولة الأسلوب والذي مكنه مباشـرة مـن فهـم مـا أردتـه.

وقد مدح أيضاً عقل الأوروبيين الذي حسب قوله يقودهم إلى التحدث والكتابة بسهولة وبدون جمل، بينما العرب والأتراك يظنون بأنهم مجبرين بتغليف أفكارهم بمصطلحات تقليدية. وقد ذكرني هذا بحاكم الحديدة حسين أفندي عندما مجد المستوى المعرفي والتعليم الممتاز لإبراهيم باشا قد أعطاني دليلا فعليا على رَقِي أسلوبه في كتابة الرسائل ومع صعوبة فهمها. وقد ذكر بأنه لم يجد في جدة سوى شخص واحد لديه القدرة على فهم وشرح رسائله.

جددت طلبي الذي كنت قد قدمته إلى الشيخ بأن أسافر إلى الجبال فرد علي بأنه لم يستطع بعد الذهاب إلى هناك ولكن إن أردت فباستطاعتي الذهاب بدونه لزيارة جبل رأس وهو جبل عالٍ في شمال شرق حيس. وبعد موافقتي أستدعى أحد رجاله الموثوق بهم وكلفه بمرافقتي في كل مكان وأن يحرص على سلامتي. وهذا الرجل يدعى عيسى الحضرمي. وكما يدل اسمه فهو من حضرموت، وهو جيد وبسيط وبدون تعصب. ومع انه صارم ومحافظ على الشعائر الدينية إلا أنه كان دائماً مرح ودائماً جاهز للخدمة، وبهذا أصبح أفضل وألطف مرافق في كل جولاتي، وإلى آخر لحظة لم أجد إلا أن أمتدح مرافقته لي وأهنئ نفسي على طبعه المتميز باللطف والرقة الملحوظتين وهي صفات نادرة عند المسلمين.

قائمة المصادر والمراجع:

1. مجموعة الرحلات، تحت إشراف شيفر، المجلد 11، رحلات لودوفيك دي فارتيما"، باريس، أيرنيست لورو، 1888.
Recueil de voyages, IXe vol, sous la direction de MM. CH. SCHEFER, t. IX, « Les voyages de Ludovico Di Varthéma », Paris , Ernest Leroux, 1888.

2. بول تيسيه، رحلات لودوفيكو دي فارتيما، تمهيد جان أوبان، باريس، شاندين، 2004.
Paul Teyssier, *Voyages de Ludovico Di Varthéma*, préface de Jean Aubin, Paris, Chandeigne, 2004.

3. قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، الرياض، دار اليمامة، 1967.

4. تاريخ اليمن وصنعاء، القسطنطينية، 1290هـ - 1873، المجلد الأول.

5. كارستين نيبور، وصف العربية، ترجمه من الهولندية إلى الفرنسة مورييه، كوبينهاجن، مولار، 1773، ص 221
Carsten Niebuhr, Description de l'Arabie d'après les observations et recherches faites dans le pays même, traduit par F. L. Mourier, Copenhague, N. Möller, 1773, p. 221.

6. الحوليات الجديدة للرحلات، باريس، شالاميل أينيه، أبريل 1870، المجلد رقم 206، السلسلة 6، ص 173.
Nouvelles annales des voyages, de la Géographie et de l'Histoire, dirigé par M. V. A. Malte-Brun, Paris, Challamel Ainé, vol. 206, 6e série, avril, 1870, t. 2, p. 173.

7. "بوتا ورحلته إلى اليمن"، في مجلة النقد التاريخي والأدبي، باريس، ايرنيست لورو، السنة 14، الفصل الثاني، 1880.
«Botta, son voyage dans l'Yémen », in Revue critique d'histoire et de littérature, publié sous la direction de MM. C. Graux, Paris, Ernest Leroux, 1880, t. 10, année 14, 2e semestre, p. 335.

8. بول أيميل بوتا، رواية رحلة في اليمن، باريس، بنجاما دوبرات، 1841م.
Paul-Emile Botta, *Relation d'un voyage dans l'Yémen*, Paris, Benjamin Duprat, 1841.

9. أندريه ثيفيت، الكوسموغرافيا الكونية، ثلاثة مجلدات، المجلد الأول، الكتاب الرابع، الفصل الثاني عشر، باريس، غويوم شوديبغ، س. 1575، ص. 117- 120.
André Thévet, *La Cosmographie universelle*, Paris, GuillaumeChaudiere, 1575, 3 vol., t. 1, Liv. 4, Ch. 12, p. 117-120.

10. حسين عبدالله العمري، تاريخ اليمن الحديث والمعاصر، دمشق، دار الفكر، 1997.

11. حسين عبدالله العمري، مئة عام من تاريخ اليمن الحديث، ط2، دمشق، دار الفكر، 1988.

12. عبدالله بن عبدالوهاب الشماحي، اليمن: الإنسان والحضارة، بيروت، منشورات المدينة، ط3، 1985.

13. حسام الدين محسن بن الحسن بن القاسم أبو طالب، تاريخ اليمن، عصر الاستقلال عن الحكم العثماني الأول، تحقيق عبدالله الحبشي، صنعاء، مطابع المفضل للأوفيست، 1990.